تحت رعاية رئيس مجلس الوزراء

سمو الشيخ/ ناصر محمد الأحمد الجابر الصباح حفظه الله ورعاه

ندوة

« القدس .. ريحانة الضمير العربي »

(2 – 3 نوفمبر 2009)

بالتعاون مع كل من:

- لجنة شؤون المرأة بمجلس الوزراء
- مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
- الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية

إصدارات مجلس النشر العلمي

مجلة العلوم الاجتماعية ١٩٧٣، مجلة الكويت للعلوم والهندسة ١٩٧٤، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ١٩٧٥، لجنة التأليف والتعريب والنشر ١٩٧٦، مجلة الحقوق ١٩٧٧، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٨٠، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ١٩٨١، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ١٩٨٣، المجلة التربوية ١٩٨٣، المجلة العربية للعلوم الإدارية ١٩٩١.

هذه ليست القدس التي نعرفُها ويعرفُها العالم على امتدادِ آلافِ السنين، ونأملُ ألا يلعبَ أحدٌ بالنار، بمثلِ التحايُل الذي تريدُ سُلطاتُ الاحتلالِ به، إخراجَ القدس من الوطن العربي والإسلامي والمسيحي.

ويجبُ علينا جميعاً -عرباً ومُسلمينَ ومسيحيّن، فلسطينيّنَ وأردنيّن، مَقدسيّنَ وغيرَ مَقدسيين- أن نكونَ مُستعدّينَ لوَقفةِ عزٍّ تاريخيّة، نقولُ فيها: "لا" بملءِ أشداقِنا وأعلى أصواتِنا ومن صَميم قلوبِنا، فالقدسُ لا تخضعُ للمُساومات، ولا يمكنُ أن نتخلّى عنها طالَ الزمنُ أو قصُرَ. فهيَ قدسُ الجِهادِ والرِباط، قدسُ العُروبةِ والإسلام، قدسُ (محمد) و(عيسى) و(عُمر بن الخطاب) و(خالد بن الوليد) و(صلاحِ الدين)، وأرتالِ المُجاهدينْ والعُلماءِ والشُهَداءِ على مَرّ الدُهورِ والأحقاب.

فلنعرف حقّها علينا، ولنواصل الصِراعَ والكِفاحَ والتزاحُمَ بشتّى الوسائلِ المُتاحة، حتى تزولَ غُربتُها وتعودَ كما كانت على امتدادِ التاريخ: الدُرّةَ فوقَ جبينِ هذهِ الأمّة.

* * *

القدس مقصد الحجاج الألمان من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر

تيلمـــــــان زايـــدنشتيكـــــــر

استاذ بمعهد الدراسات العالمية الاسلامية - جامعة بيننـا، المانيا

الملخص

ترك كثير من الألمانيين من بين الأعداد الهائلة للحجاج إلى مدينة القدس، وصفاً مكتوباً لرحلاتهم تلك، شأنهم في ذلك شأن الحجاج الأوروبيين الآخرين. وبلغ عدد تلك اليوميات باللغة الألمانية وحدها منذ القرن الخامس عشر للميلاد نحو ستين يومية. وتقدم الدراسة هذا الجنس الأدبي وتطوره بدءاً من القرن الرابع عشر فصاعداً، وتناقش الأسئلة التالية:

من أولئك الحجاج؟ وكيف بالإمكان تفسير تباين خلفياتهم الاجتماعية؟ وفضلاً عن «الشفقة»، ما دوافع ارتحالهم إلى القدس؟ وكيف كان استقبالهم للمدينة المقدسة؟ وكيف جرى توصيف قاطنيها، من النصارى وغير النصارى؟

لم تكن القدس لِتُعرفَ بأنها الهدف الوحيد للحجاج المسيحيين، فإلى جانب وِجهات السفرالثانوية العديدة تُذكر مدينة روما قبل أي مدينة أخرى لكونها تحتوي على قبر كل من الحَواريين بطرس وبولص ولكونها مقرّ البابا، إذ زادت أهمية روما بعد نهاية الحروب الصليبية بشكل كبير، وخاصة من خلال إحداث ما يعرف بـ"السنوات المقدسة" ابتداء من عام 1300م. فقد وعد البابا بونيفاز الثامن الحجاج برفع العذاب المؤقّت في الدنيا والآخرة، ولذلك كان على الحجاج أن يزوروا بانتظام كنيسة القديس بطرس وكنيسة بولص ، لمدة زمنية لا تقلّ عن أربعة عشريوماً، ويقدّر العدد الكلّي لحجاج روما في السنة الأولى المقدسة عام 1300 بنحو مليوني حاج ، وفي المرة الثانية فإن العدد يقدربـ 1،2 مليون حاج .

وإن مركز الحجاج الأوروبي الثاني والكبير هو سانتياغو دي كومبستيلا في الشمال الغربي لإسبانيا ، فابتداء من النصف الثاني للقرن التاسع الميلادي حدّد مكان قبر الحواري يعقوب في سانتياغو، ومنذ بداية القرن الخامس عشر أمل الحجاج الذين يسافرون إلى هذا المكان في السنوات المقدسة غير المنتظمة أن تُمحَى عنهم العقوبات .وليس من السهل تقدير عدد الزائرين في القرون الأولى، لكن عدد الحجاج الذين قدِموا إلى سانتياغو من بريطانيا وحدها بلغ أكثرمن ألف زائر.

وإن الأمر الحاسم في نشأة التقليد المسيحي للرحلات إلى القدس يتجسد في زيارة هيلينا والدة القيصر قسطنطين في سنة 326م لقبر السيد المسيح؛ إذ إن بناء كنيسة القيامة كان النتيجة المباشرة لهذه الرحلة. وقد تنامى عدد الحجاج الذين شاهدوا – إلى جانب القدس – مدناً وقرى أخرى في فلسطين ودير كاترين في سيناء حتى القرن الحادي عشر بشكل مستمرّ، ففي سنة 1044م؛ أي قبل بداية الحروب الصليبية بنصف قرن، ذكر أحد التقارير عن خلق لا يحيط بهم حصر توجّهوا من مختلف أنحاء العالم نحو القدس، وقد تقلص عدد الحجاج بكل تأكيد بعد الحروب الصليبية، لكن التقديرات متضاربة بشكل كبير، فقد زعم أحد الباحثين أنّ عدد الحجاج في القرن الخامس عشر كله يقدر بستة آلاف حاجّ. لكن باحثين آخرين تحدثوا عن مئات كثيرة في كل عام، بحيث وصل العدد إلى ثلاثين ألف حاج في كل قرن.

لقد سلك معظم حجاج بيت المقدس قبل الحروب الصليبية الطريق البري؛ أي سلكوا الطريق العسكري الروماني القديم عبر البلقان إلى القسطنطينية، ومن هناك سلكوا الطرق الممهدة عبر الأناضول وسوريا باتجاه فلسطين، ولكن قطعت هذه الطريق بعد معركة منازجرد المشهورة عام 1071م؛ ففي هذه المعركة في شرق الأناضول قضى السلاجقة الأتراك على الجيش البيزنطي، وبعد ذلك تسللوا ببطء باتجاه الأناضول.

وبعد الهدنة في نهاية الحرب الصليبية الثالثة في سنة 1192م بين الصليبيين وبين صلاح الدين الأيّوبي تحولت طريق الحج إلى البحر، فقد انطلقت أساطيل الحجاج من موانئ البحر الأبيض المتوسط المتعددة، وخاصّة من البندقية نحو يافا مرة في شهر آذار وأخرى في الفترة ما بين حزيران ونهاية آب، وقد كانت الرحلة تتوقف في أماكن كثيرة، وتستمر من أربعة أسابيع إلى سبعة، و كانت الطريق تبدأ عبر كورفو وكريت ورودوس وقبرص. ويبدو أن طريقاً أخرى كانت تتجه نحو الإسكندرية ابتداء من القرن الرابع عشر، ومن هناك تتجه براً نحو القاهرة ودمشق وبيت لحم والقدس، وكانت طريق العودة تنطلق من يافا عبرالبحرباتجاه أوروبا.

وقد توافرت لنا معلومات جيدة نسبياً حول طرق الرحلة والأوضاع على متن السفن والحوادث والملاحظات وتقييمات الانطباعات عن هذه البلاد؛ وذلك لأن حجاج وسط أوربا خلفوا لنا تقارير عن الرحلات وعدداً من الأدلاء السياحيين، ويعود المثال الأول على هذا النوع من النصوص إلى زمن قصير بعد زيارة هيلينا إلى القدس، ففي سنة 333م سافر الحاج المشهور والمجهول الاسم من بوردو عبرالطريق البرية إلى الأرض المقدسة وخلف وراءه تقريراً باللغة اللاتينية حول هذه الرحلة، أحصى فيه في المقام الأول الطرق التي سلكها، ومن سنة 381 حتى سنة 384 قامت إيغيريا أو إيثيريا التي تنحدر من شمال إسبانيا أو من جنوب فرنسا برحلتها، وخلفت لنا بالمِثل وصفاً للرحلة، ألف بأسلوب شخصيٍ أكثر مما جاء في تقرير "حاج بوردو".

وفيما يلي جدول ، أحصيت فيه النصوص المؤرّخة أوّلاً، والنصوص غير المؤرخة ثانياً. وقد ألفت هذه النصوص قبل كل شيء باللاتينية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.

السنة	عدد النصوص المؤرخة
1301-1320	4
1321-1340	12
1341-1360	10
1361-1380	7
1381-1400	12
1401-1420	9
1421-1440	20
1441-1460	21
1461-1480	42
1481-1500	48
1501-1520	49
1521-1540	28
المجموع	262

القرن	عدد النصوص غير المؤرّخة
1301-1400	30
1401-1500	60
المجموع	90

وإذا ما أضفنا النصوص غير المؤرخة بدقة إلى ما مجموعه 262 نصاً، فإنه يتضح من الجدول أنّ مجموع النصوص كلها هو 352.

وكما يتبين فإن النصوص التي تدور حول الرحلة إلى القدس قد وصلت ذروتها في القرن الخامس عشر، بحيث ألف في هذا القرن ما مجموعه مائتا نص. وبعض هذه النصوص لا يتعدى في حجمه بعض الصفحات بينما بعضها الآخر فيه إسهاب، وإن فيلكس فابري الذي ولد في سويسرا وعاش في أحد الأديرة بالقرب من أولم في جنوب ألمانيا كان قد زار القدس مرتين بين عامي 1480 و1484م وكتب كتابه "Evagatorium" الذي يتألف من ثلاثة أجزاء، جاءت في ألف وخمسمائة صفحة .

ومن البندقية قامت شركات السفن الإيطالية بتنظيم الرحلات والتنسيق مع السلطات الإسلامية فيما يتعلق بالدخول إلى فلسطين ومصر. وفي نهاية القرن الخامس عشر ذكر أحد الحجاج الألمان عقداً مع إحدى هذه الشركات في كتابه حيث تحدث عن تفاصيل كثيرة، فقد سجلت على سبيل المثال الأشياء الآتية:

- على المسؤول أن يحضر سلاحاً لثمانين رجلاً يكونون على ظهر السفينة لمواجهة القراصنة، وعليه أن يتوقف في كل الموانئ التي تكون في طريقه، ويجب عليه ألا يمكث في أي ميناء أكثر من يومين أو ثلاثة أيام باستثناء قبرص.
- لا يسمح للمسؤول بتخزين بضائع في المكان الذي وعد به الحجّاج.
- يجب أن يقدم لكل حاج الطعام والشراب مرتين في اليوم، ويجب أن تُقَدَّمَ لكل حاج قبل وجبة الطعام كأس من الخمر.
- يجب على المسؤول أن يرافق حجاج الأرض المقدسة شخصياً حتى نهر الأردن.
- يشمل سعر الرحلة تكاليف رحلة الذهاب والإياب لمترجم لكل جماعة من المسافرين، لكن تكاليف المترجم في الأراضي المقدسة يتحملها كل حاج على نفقته الخاصة

وكما يبدو فإن الأوضاع على السفن لم تكن على ما يرام، فقد عرفنا عن السفينة الإيطالية التي يبلغ طولها خمسة وأربعين متراً، أنها كانت تضم إلى جانب الركاب المائتين مائة وأربعين ملاحاً، بالإضافة إلى حيوانات حية كانوا يتغذون عليها.

لكن ما أسباب جاذبية القدس؟ للوهلة الأولى يكمن ذلك في سبب أهميتها الدينية العظيمة لارتباطها بقصة الإنجيل وكذلك أملاً في سلام النفس أو طعماً في مغفرة الذنوب، فقد ذكررفع العذاب المؤقت في بداية القرن الرابع عشرفي تقارير حجاج القدس وإن هذا الرفع لم يكن من أفكار البابوات، الذين كانوا يريدون أن يدعموا مدينة روما سياحياً، وإنما كان هذا من اختراع الرهبان الفرنسيسكان في القدس.

ولا ينبغي التقليل من شأن الدوافع الدنيوية للحج؛ فقد كانت هناك عادة عند الحجاج النبلاء أن يُمنَحوا رتبة الفارس عند قبر المسيح، كما كان يفعل فرسان الحملة الصليبية، وكانوا يدعون في أوطانهم بفرسان القبر المقدس، وإن العلامة الظاهرة التي تدل عليهم تتمثل في الصليب الخماسي؛ أي ما يعرف بـ" صليب القدس "، وكان هذا الصليب مأخوذا عن شعار جوتفريد فون بوليون، وكان الحجاج النبلاء يلبسونه في أعناقهم كميدالية ذهبية، وقد أخبر عن هذا للمرة الأولى حاج ألماني من عام 1333. وتُبين تقارير الحجاج في القرن الخامس عشر أن الحصول على رتبة الفارس عند القبر المقدس في هذا الوقت جزء ثابت من أجزاء الرحلة. وإن الهيبة التي ترتبط بمنزلة الفارس كانت قد دفعت أكثر من عشرين ملكاً وأميراً ينتمون إلى البلاد الناطقة بالألمانية للرحلة إلى القدس. وفي نحو القرن الخامس عشر كان بمقدور الناس العاديين وليس النبلاء فقط أن يُنَصَّبوا على أنهم فرسان القبر المقدس بشرط أن تكون سلوكاتهم في الحياة ومكانتهم الاجتماعية في بلدانهم جيدة. ويتضح من هذا ومن الثروة المتنامية للمواطنين العاديين السبب في أنّ كثيراً من المواطنين آنذاك كانوا من بين مؤلفي تقارير الرحلات ، وغالباً ما كان ذلك هو الدافع الأوّل إلى الرحلة للقدس.

وكانت الرغبة في الارتحال وحب الاستطلاع أيضاً دافعين مهمّين، إذ رأى بعض البطارقة الشباب أو النبلاء في مخاطر الرحلة إمكانية ليبرهنوا على أنهم رجال. فالطبيب ليونهارت راوفولف الذي ينحدر من أوجسبورغ، والذي زار القدس سنة 1573 يشرح دوافعه على النحو التالي:

" لقد كانت لديّ رغبة منذ زمن الصبا للارتحال إلى البلاد الغريبة، وإلى بلاد الشرق قبل كل شيء وخاصة تلك البلاد المشهورة والخصيبة، حيث أسست الشعوب القديمة ثقافاتها وحيث حكم ملوك العالم الأكثر قوة. لم أرد أن أعرف حياة الناس وعاداتهم في هذه البلاد فقط، وإنما أردت أن أَعثُرَ على النباتات والأعشاب الجميلة وأختبرَها ، تلك النباتات والأعشاب التي وصفها كل من ثيوفراست، وديوسقورديس وابن سينا وابن سرابيون " .

يتبين بشكل واضح من كلمات راوفولف أن الرغبة في الترحال والتعطش إلى المعرفة هما دافعان للرحلة التي تمتزج باهتماماته المهنية، ويبدو أن هذا الدافع المهني كان يندر جداً عند غيره، ولا ننسى أن اثنين من النبلاء من مقاطعة بوركون الفرنسية، وهما جيلبرت دي لانوي وبيرتراندون دي لابروكويه قد أرسلا إلى سوريا ومصر في النصف الأول من القرن الخامس عشركجاسوسين، وتظاهرا على أنهما من حجاج القدس. وبالمقابل من ذلك فقد سئل الألماني أرنولد فون هارف أثناء رحلته في الفترة ما بين 1496 و1498 لدى مقابلته السلطان قايتباي في القاهرة والسلطان بايزيد الثاني في القسطنطينية ما إذا كانت الإشاعات عن حملة صليبية فرنسية جديدة حقيقية أم لا.

ويبدو أن دافع التبشير قد ندر بشكل كبير جداً: فقد ارتحل باول فالتر فون جوجلينجن وهو راهب فرنسيسكي ألماني عام 1481 إلى الأراضي المقدسة، واعترف في تقريره أنه أراد أن يمكث في الأراضي المقدسة كمبشر أو أن يرتحل إلى الهند. وقد منع أن يكون مبشراً من قبل قيادة الفرنسيسكيين في القدس، وأعيد إلى ألمانيا.

على أنّه لم ينظر إلى رحلات الحج على أنها إيجابية فقط، إذ كتب جريجور أسقف نيسا في القرن الرابع الميلادي أن وجوب زيارة الأماكن المقدسة في القدس لم يرد في الإنجيل، وأن الرحلات تتضمن خطراً أخلاقياً وخاصة بالنسبة للنساء، ففي القرن الثاني عشر سئل عالم الدين هونوريوس أوغسطودوننسيس فيما إذا كانت القدس أولى للزيارة من، أماكن أخرى، فأجاب أنه من الأفضل للمرء أن يعطي ماله للفقراء، وانتقد كل أولئك الذين يسافرون رغبة في الارتحال أو حباً في الظهور، فقد انتقد جايلر فون كايسرسبيرغ الحجاج عام 1489 قائلاً:

" لأجل هذا يُعرِّض المشرَّدون أنفسهم لخطر كبير في البحر والبر، ويعانون من الجوع والعطش، حتى يتمكنوا من القول إنهم كانوا هنا وهناك، وإنهم شاهدوا هذا وذاك..... ولا يَجنُون من وراء ذلك شيئاً سوى أنهم يُنفقون المال أو يتعلمون بعض الكلمات من اللغة الأجنبية مثل: " ها شاله ماهيريت واشاوا " . "

وقد حنِق النبلاء على الحجاج من المواطنين العاديين؛ فقد تنازل الإسكندرفون بابنهايم في منتصف القرن السادس عشر عن لقب الفارس، وسخِر من أنّ القساوسة وصانعي الأحذية والخيّاطين يمكنهم الحصول على رتبة فارس بعد زيارتهم للقدس.

إن الاختلافات بين تقارير الحجاج من مختلف البلدان الأوروبية لا تكاد تذكر، لذلك فقد كان بمقدوري أن أعنون مداخلتي أيضاً بـ"القدس مقصد الحجاج الأوروبيين" ، لكن يمكن تعرّف بعض الاختلافات البسيطة طبقاً لمنشأ المؤلفين، فمعظم التقارير – تقريباً – تشهد على انحيازات دينية متأصلة في النفس ضد المسلمين، لكن ظهر – في الوقت نفسه – انطباع واضح بأن الخوف من "الغريب" قد لعب دوراً كبيراً. وإن الهُتافات والصراخات غير المفهومة من المواطنين العرب الموجهة للحجاج فسرت على أنها سُخرية وهجاء للزائرين القادمين من الغرب. وقد ورد الشيء نفسه عند الألمان أيضاً، ومن الجدير بالملاحظة أن مجموعة مكونة من ثلاثة نبلاء إيطاليين من توسكانا سافروا عام 1384م، إذ يبدو أنهم قد حصلوا على معلومات عن الأحوال الدينية والثقافية للبلد الذي يريدون أن يقصدوه قبل البدء برحلتهم، ولذلك كان بمقدورهم دون غيرهم من المسافرين أن يفهموا الشعب العربي فهماً نزيهاً أو حتى إنهم رأوا أن العرب يتصفون بدماثة الأخلاق، وربما توافرت في إيطاليا من خلال تجارة مدن شمال إيطاليا مع سوريا ومصرمعرفة أكثر عمقاً عن ثقافة جنوب البحر المتوسط وشرقه. وقد كانت منطلقات بعض التقاريريحددها الجمهور الذي ألفت له النصوص. ويظهر هذا بشكل خاص في كلتي الروايتين المتوازيتين للألماني السويسري كان فيلكس فابري، فالنص المؤلف باللاتينية والذي كتب لرجال الدين والكنيسة كان يحتوي على نقد للعرب أكثر مما جاء في الرواية الألمانية المختصرة، التي احتلت فيها اللقاءات الودية مع بعض المسلمين مساحة كبيرة.

وقد تميزت أوصاف القدس بشكل عام من خلال التركيز على الأماكن المذكورة في الإنجيل، وإن هذه الأوصاف في معظمها نَمَطية، وهذا يختلف بعض الشيء

عن باقي المدن التي اعتاد الناس على زيارتها مثل: القاهرة والإسكندرية ودمشق. ومما هو لافت للنظر أن التقارير الألمانية (ومثلها التقارير البلجيكية والشمال فرنسية) قد عالجت جاذبية هذه المدن السياحية غير المقدسة بإسهاب في وقت متأخر نسبياً (أي في القرن الخامس عشر)، ويمكن توضيح ذلك بأن البعد الكبير عن البحر المتوسط كان سبباً في قلة الاهتمام، وأن تطور التجارة الخارجية قد وجه أنظار الشعوب القاطنة في مناطق شمال جبال الألب بشكل موسَّع.

لم أذكر حتى الآن سوى مجال واحد، سجل فيه الألمان رقماً قياسياً، إنه عدد صفحات الكتاب. ففي هذا المجال لم يتجاوز أحد آخر من الأوروبيين فيليكس فابري في "استطراداته" التي جاءت في عام 1494م في ألف وخمسمائة صفحة. لكن هناك عملاً ألمانياً آخر احتل مكانة مرموقة، إنه تقرير القسيس بيرنهارد فون بريدنباخ من مدينة ماينتس، الذي زار القدس عامي 1483 و1484م، وذلك مع فيليكس فابري في رحلته الثانية، وقد اصطحب في رحلته الرسام والناشر إيرهارد رويفيش من أوتريشت من هولندا حتى يقوم بعمل الصور التوضيحية لتقريره. ولم يصبح تقرير بريدنباخ من بين الكتب الأكثر مبيعاً في القرون الوسطى إلا بسبب الصور الباهرة المحفورة على الخشب. توجد لذلك الكتاب اثنتا عشرة نسخة مطبوعة بخمس لغات مختلفة ظهرت في الوقت ما بين 1486و 1522.

من هذه الصور تبدو إحداها بخريطة شامخة تمتد من طرابلس الشام في الشمال إلى الإسكندرية في الجنوب، ويقدَّر مقياسها بمائة وواحد وعشرين سنتيميتراً عرضاً وبسبعة وعشرين سنتيمتراً ارتفاعاً، وأضيف إلى الخريطة منظر لمدينة القدس.

وقد وجدت الخرائط في تقارير الحجاج قبل هذا الوقت ،فعلى سبيل المثال تضمن تقرير الحاج الجاسوس دي بروكيير منظراً لمدينة القدس. وهناك خريطة قديمة ومشهورة للأرض المقدسة جاءت في تقرير البريطاني وليم ويه الذي كان موجوداً في القدس في عامي 1458 م و1462م ، وتمتلك هذه الخريطة شكلاً مستطيلاً مماثلاً للمذكورة آنفاً، فعرضها مائتان وأحد عشر سنتميتراً، وارتفاعها أربعون سنتيمتراً، والتصوير فيها مائل إلى التجريد غالباً، ويرمز إلى المدن بشكل دائم من خلال بناء واحد. وعلى النقيض من هذا فإن خريطة رويفيش تبدو وكأنها صورة ملتقطة من الجو

مائلة، وإذا ما نظر المرء إلى هذه الخريطة عن قرب، فإنه يرى أن الانطباع الواقعي يمكن أن يكون خادعاً:

- تتميز الخريطة الكبيرة بأنها تمتد من البحرالأبيض المتوسط صوب الشرق، بحيث يقع البحر وسفينة الحجاج أمام يافا في الأسفل فتُرى في الأفق جبال الأردن.
- إن منظر مدينة القدس يرى من الشرق، أي من جبل الزيتون. ومن الغريب أنّ قبة الصخرة تبدو صغيرة، لكن ما تبقى من بناء الحرم والمسجد الأقصى قد ظهر بشكل جيد.
- وقد سمح رويفيش لنفسه تارة أخرى بحرية في تصوير كنيسة القيامة؛ إذ نرى من الجهة الشرقية الواجهة الجنوبية، وهذا يعني أن الكنيسة استدارت بمقدار 90 درجة .

وعلى الرغم من هذه الانحرافات عن الحقيقة، وربما بسببها – فإنها تخدم أهدافاً جمالية – فالخريطة التي مضى عليها حتى الآن 523 عاماً عبارة عن منظر رائع مثير للإعجاب.

لقد رأينا أن التقارير الألمانية حول الرحلات إلى القدس لاتختلف كثيراً عن التقارير الأوروبية الأخرى. فمثلها مثل التقارير من البلدان الواقعة شمال جبال الألب تعطينا معلومات أقل من المعلومات الموجودة في تقارير الإيطاليين. ويُعتبر نصيب الألمان من النصوص كبيراً نسبياً، ويقدّر بالثلث على الأقل. وإذا بحثنا عن المميزات فلا بدّ أن نترك جانباً الطبيب ليونهارت راوفولف وكتابه "الوصف الصادق للرحلة إلى بلاد الشرق" الذي صدر عام 1582؛ لأن هذا الرجل لم يكن حاجاً بل كان رحالة باحثاً زار فيما زار طرابلس الشام، حلب، بغداد، القسطنطينية وكذلك القدس. لكن كتاب فيلكس فابري المذكور أعلاه، والذي أصفه بأنه أضخم كتب الرحلات إلى القدس يحمل العنوان اللاتيني Evagatorium؛ أي كتاب الاستطرادات – ليس ضخماً في حجمه ومطنباً فقط بل ضخم في محتواه، ثري في معلوماته. إن الدقة الألمانية ليس لها نظير؛ فعلى الرغم من منشأ فابري السويسري، والذي جاء إلى ألمانيا في الثلاثين من عمره، فقد بدا أنه أصبح ابن ألمانيا في هذا الصدد.

وليس من السهل أن نصف كتاب برايدنباخ كمثال يجسد بعض صفات الألمان. فالرجل الذي جعل من هذا الكتاب عملاً مشهوراً من خلال الصور المنحوتة في الخشب، وهو رويويش، لم يكن ألمانياً بل هولندياً، لكنها كانت فكرة برايدنباخ أن يصحبه أثناء الرحلة.

ويعتبر المستشرقون العالم الإسلامي بمقارنة أوروبا عالماً مليئاً بالحركة، ومحباً للسفر والترحال. ترجع أسباب ذلك في رأيهم إلى أداء فريضة الحج، وكذلك إلى السفر في طلب العلم. وقبل أن أتلقى الدعوة إلى هذا المؤتمر الموقر لم أكن أدري أن القدس جعل من الأوروبيين أيضاً أقواماً محبين للسفر والترحال.

وفي النهاية أشكركم – أعزائي الحاضرين – على حسن استماعكم، كما أشكر السيدات والسادات القائمات والقائمين على تنظيم هذا المؤتمر لدعوتهم اللطيفة. كذلك أشكر صديقي وزميلي موسى ربابعة الذي قام بترجمة محاضرتي من الألمانية في وقت قصير على هذا النحو من الدقة.

المراجع

(1) Christiane Hippler: Die Reise nach Jerusalem. Untersuchungen zu den Quellen, zum Inhalt und zur literarischen Struktur der Pilgerberichte des Spätmittelalters. Frankfurt/Bern/New York 1987.

(2) Ursula Ganz-Blättler: Andacht und Abenteuer. Berichte europäischer Jerusalem- und Santiago-Pilger (1320-1520). Tübingen 1991.

(3) Heike Schwab: Toleranz und Vorurteil. Reiseerlebnisse spätmittelalterlicher Jerusalempilger. Berlin 2002.

* * *